الحركة العلمية بالاسكندرية

في عصر الحروب الصليبية

الأستاذ أحمد أحمد بدوى

كانت الإسكندرية تلى القاهرة من حيث المكانة العلمية فى ذلك الحين ، حفلة بطائفة كبيرة من أعيان العلماء ، فى مواد الثقافة المختلفة ، ودرس فيها كثير من رجال السنة ، حتى فى الوقت الذى كان مذهب أهل الشيعة سائداً فيها ، وأنشئت فيها أول مدرسة فى الديار المصرية كلها ، وإليها رحل صلاح الدين لاستماع حديث رسول الله .

وقبل أن تنشأ المدارس بها ، كان جامع العطارين منذ أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٧ هـ معهد علم وينبوع ثقافة ، وقد ظل يؤدى رسالته طول عصر الحروب الصليبية ، ويساهم مساهمة جدية فى نشر العرفان .

وتنوعت الدراسات فى جامع العطارين ؛ فهذا عمر بن عيسى السوسى نحوى أخذ عنه النحو أكثر أهل الأسكندرية ؛ وكان يقرأ لهم فيه كتاب سيبويه وتوفى سنة ٤٩٨ هـ . وهذا عبد الرحمن ابن أبى بكر بن خلف شيخ الإسكندرية الذى انتهت إليه رياسة الإقراء فيها ، ونبغ حتى قال فيه سليمان بن عبد العزيز الأندلسى : ما رأيت أحداً أعلم بالقراءات منه ، لا بالشرق ولا بالمغرب . وهذا محمد بن أحمد بن الخطاب شيخ الأسكندرية فى الحديث وتوفى سنة ٥٢٥ . أما أبو القاسم بن مخلوف فأحد كبار المالكية الذين أذاعوا هذا المذهب فى الأسكندرية . وكان لمحمد بن الحسن بن زرارة حلقة فى الجامع لإقراء الأدب كما كان المشرف على خزانة الكتب فيه . وممن سجل لهم التاريخ تدريسهم بالجامع الجيوشى العالم الأديب أحمد بن محمد بن المنير أحد الأئمة المتبحرين فى التفسير وفقه المالكية والأصول والبلاغة كما كانت له اليد الطولى فى علم الأدب . وكان عز الدين بن عبد السلام يقول عنه : الديار المصرية تفتخر برجلين فى طرفيها : ابن دقيق العيد بقوص ، وابن المنير بالأسكندرية .

وأول مدرسة أنشئت بهذا الثغر المدرسة الحافظية التى أقيمت فى عهد الحافظ الفاطمى (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ويظهر أنها أنشئت فى عهد الوزير أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش لتدريس علوم الشريعة . ويحفظ لنا القلقشندى فى كتاب صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٤٥٨) نسخة سجل بتولية مدرس هذه المدرسة . وقد تكفل فيه الوزير برزق طلبة المدرسة وأستاذها الذى سيشرف على هذا الإنفاق . وفى هذا السجل يتحدث عن السبب الذى دعا إلى بناء مدرسة بثغر الأسكندرية فيقول : « ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الأسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور ، فإنه خليق بعناية تامة ... لأنه من أوفق الحصون والمعاقل ، والحديث من فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ، وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والرابطين والصلحاء ، وأن طلبى العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه ، مشتتو الشمل متفرقو الجمع — إلى أمير المؤمنين أن يكونوا حاوين ، ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين مشتتين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية ... »

واختارها ابن السلار الوزير الفاطمى كذلك سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) لإنشاء مدرسة للشافعية فيها ، أسند إدارتها إلى السلفى وقد عمرت هذه المدرسة ، وكانت تعرف بالمدرسة السلفية حتى بعد وفاة شيخها ، وفيها تخرج كثير من العلماء الممتازين ولم يكن للشافعية مدرسة غيرها .

وقبل هاتين المدرستين ، سكن الأسكندرية ودرس فيها عالم ممتاز هو محمد بن الوليد الطرطوشى ، فقد تزوج من موسرة وهبت له داراً هيأ منها قاعة وهبها للطلبة ، وجعلها مدرسة لازم التدريس فيها ، وتفقه عنده بها جماعة من الأسكندريين . ولما توفى الطرطوشى سنة ٥٢٠ هـ جلس لإلقاء الدرس بها بعده تلميذه سند بن عنان الفقيه المالكى .

تلك حال المدارس قبل عهد الأيوبيين ، فلما جاء صلاح الدين استكثر منها ، وفتح أبوابها للآتين والآبدين ، ونصب فيها مدرسين لجميع ألوان العلوم . وقد شاهد ابن جبير هذه المدارس عندما زار الأسكندرية فى أيام ابن أيوب وقال عنها فى كتابه : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه

المدارس والمدارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية ، فيلاق كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراء يقوم بجميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء ، الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . »

والظاهر أن أغلب مدارس الأسكندرية كان لطائفة المالكية ، فقد عرفنا عدداً جماً من أساطين هذا المذهب يسكنون ذلك الثغر ، فمن تلك المدارس مدرسة ابن الأنجب ، وقد عرفت باسم مدرسها على بن الأنجب الفقيه المالكى ، وأحد أكابر حفاظ الحديث وعلومه ، صحب السلفى وانتفع به ، وصحبه العلامة المنذرى وأطال صحبته وعليه تخرج ، وله نظم علماء كقوله :

أيا نفس ، بالمأثور عن خير مرسل وأصحابه والتابعين تمسكى
عساك — إذا بالغت فى نشر دينه —
بما طاب من نشر له أن تمسكى
وخاف غدا يوم الحساب جهنما إذا لفحت نيرانها أن تمسكى

وكان ينوب فى الحكم بثغر الأسكندرية ومات سنة ٦٢١ .

ومنها مدرسة بنى حديد التى درس فيها أحمد بن محمد بن سلامة وهو من رؤساء المالكية توفى سنة ٦٤٥ .

ولست أدرى إن كانت دار الحديث النبهية التى تولى مشيختها على بن أحمد العراقى المتوفى سنة ٧٠٤ قد أنشئت فى عصر الحروب الصليبية أو بعده .

وعرفت الأسكندرية طائفة من أعلام العلماء درسوا فى دور العلم المختلفة بها ، مما يدل على حركة علمية ناضجة :

فمن فقهاء الشافعية ، وكانوا قليلين بها — أبو الحجاج يوسف ابن عبد العزيز ، وهو من علماء الأصول والجدل ، روى عنه السلفى ومات سنة ٥٢٢ ، ومحمد بن عبد الله بن الفن المتوفى عن ثمانين سنة بالأسكندرية سنة ٦٧٩ .

ومن فقهاء المالكية ، وكانوا بها أكثرية — أبو الحرم مكى نفيس الدين ، وقد أدرك السنين الأولى فى الحروب الصليبية ، ومات سنة ٥٠١ ، وألف شرحاً عظيماً لمهذب الدولة البرادعى فى مجلد ، وشرحاً على ابن الحلاب فى فقه المالكية أيضاً فى عشر مجلدات ، وأبو الحسن على بن إسماعيل الأبيارى الذى برع فى علوم شتى : الفقه والأصول وعلم الكلام ، وله مؤلفات حسنة ، منها شرح البرهان فى أصول الفقه ، وكان بعض العلماء يفضله على فخر الدين الرازى فى الأصول ، ومنها كتاب سفينة النجاة ، على طريقة إحياء العلوم للغزالى . وكان الفضلاء يقولون : إنه أكثر إتقاناً من الإحياء وأحسن منه . وأصله من مدينة أبيار على شاطئ النيل بالقرب من الأسكندرية ، ومات سنة ٦١٦ . ومنهم ابن رواج تلميذ السلفى ، وهو عالم ورع توفى سنة ٦٤٩ هـ .

ونبغ فى الأسكندرية طائفة كبيرة من القراء ، نذكر منهم الحسن بن خلف القيروانى المتوفى سنة ٥١٤ . واليسع بن عيسى الأندلسى الذى أخذ القراءات عن أبيه ، وكان أبوه من جلة المقرئين ، وأقرأ هو بالأسكندرية ، ثم رحل إلى مصر فقربه صلاح الدين ، ورتب له معلوماً وافراً . وكان يكرمه ويشفعه فى مطالب الناس . وكان مقرئاً محدثاً حافظاً نسابة مؤرخاً ، له كتاب تاريخ فى محاسن المغرب وتوفى سنة ٥٧٥ . ومنهم عبد الرحمن بن عبد المجيد الصفراوى الفقيه المالكى المقرىء المحدث المتوفى سنة ٦٣٦ ، وقد انتهت إليه رياسة العلم فى الثغر . وعبد الله بن محمد النكزاوى المقرىء النحوى المؤلف المتوفى سنة ٦٨٣ . والمكين الأسمر شيخ قراء الأسكندرية المتوفى سنة ٦٩٢ هـ .

ومن رجال التفسير بالأسكندرية يحيى بن محمد التجيبى ، قال الذهبى : حج وجاور ، وسمع بمكة وسكن الأسكندرية ووعظ ، وصنف فى التفسير والرقائق ومات سنة ٦٥٢ .

ومن رجال الحديث بها عبد الله بن عبد الرحمن الدمانى ، من ولد عثمان بن عفان ، كان واسع الباع فى علم الحديث ، كثير الرواية ، متصرفاً فى النظم والنثر ، مات سنة ٥٧٢ . وأبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عوف ، وهو شيخ المالكية بالثغر ، تفقه على الطرطوشى ، وصار إمام عصره فى المذهب ، وعليه مدار الفتوى مع الورع والزهد ، وله مصنفات منها كتاب التذكرة فى أصول الدين ، وهو الذى قصد إليه صلاح الدين وسمع منه موطأ مالك ومات سنة ٥٨١ هـ . ومنهم الفقيه المالكى المحدث أبو العباس

أحمد ابن عمر القرطبي ، سمع الحديث من مشايخ المغرب وتلمسان وسبته ، ورحل مع أبيه من الأندلس صغيراً ، وسمع بمكة والمدينة والقدس ومصر ، واستقر به المقام في الأسكندرية ، وكان معروفاً بالبلاغة والتقدم في علم الحديث ، وله على صحيح مسلم شرح سماه المفهم في شرح صحيح مسلم ، واختصر صحيحي البخاري ومسلم ومات سنة ٦٥٦ ، ومنهم ابن العماد منصور بن سليم الذي رحل في طلب العلم إلى مصر وبغداد ودمشق وحلب وغيرها ، وعنى بالحديث وفنونه ورجاله ، وبالفقه ، وألف فيهما كما ألف تاريخاً للأسكندرية ، وصنف معجم شيوخه . وممن روى عنه الشرف الدمياطي ، ومات سنة ٦٧٣ . ولم يخلف في الثغر مثله .

وعرفنا في الإسكندرية طائفة من النحاة ، نذكر من بينهم الحسن بن جعفر بن صوان الذي صنف كتاباً في النحو سماه المذهب ، وكان موجوداً سنة ٥١٧ . ومنهم ثابت بن حسن خليفة اللخمي ، وكانت له معرفة بالنحو ، وينظم شعر علماء كقوله :

العلم يغنم أهله أن يغنما ... فاسمح به تنل المحل الأرفعا
واجعله عند المستحق وديعة ... فهو الذي من حقه أن يودعا
والمستحق هو الذي إن حازه ... يعمل به أو إن تلقنه وعى

ومات سنة ٦٣٥ ، وعيسى بن عبد العزيز بن عيسى ، وكان مقرئاً نحويا ، وترك مؤلفات تزيد على خمسة وأربعين في النحو والحديث والوعظ والتاريخ والأدب والقراءات والتجويد والفقه ، منها كتاب الأمنية في علم العربية ، والرسالة البارعة في الأفعال المضارعة ، والإفهام في أقسام الاستفهام ، وكتاب الجامع الأكبر والبحر الأزخر في القراءات ، وقد قرىء عليه في رجب سنة ٦١٤ بداره في ثغر الإسكندرية . وله ديوان شعر ومات سنة ٦٢٩ هـ . ومنهم العالم المشهور ابن الحاجب فقد وفد على الإسكندرية . وعبد العزيز بن مخلوف الذي قدم إلى الإسكندرية من بلاد المغرب وأصبح بها من أئمة النحو ، وتخرج على يديه نحاة الإسكندرية ولكنه لم يصنف شيئاً ، وله شعر متأثر بالنحو تأثراً بالغاً مثل قوله :

ومعتقد أن الرياسة في الكبر ... فأصبح ممقوتاً به وهو لا يدري
يجر ذيول العجب طالب رفعة ... ألا فاعجبوا من طالب الرفع بالجر

ومات سنة ٦٩٣ .

وأرجو أن أوفق في فرصة أخرى إلى دراسة باقي ألوان الثقافة ومعرفة رجالها .

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

مراجع البحث :

١ — الديباج المذهب .
٢ — حسن المحاضرة .
٣ — طبقات الحفاظ للسيوطي .
٤ — السلوك للمقريزي .
٥ — بغية الوعاة للسيوطي .
٦ — طبقات القراء للذهبي .
٧ — كشف الظنون .
٨ — رحلة ابن جبير .
٩ — وفيات الأعيان .
١٠ — الدرر الكامنة .
١١ — صبح الأعشى .
١٢ — النجوم الزاهرة .
١٣ — شذرات الذهب .
١٤ — طبقات المفسرين للسيوطي
١٥ — الروضتين في أخبار الدولتين
١٦ — الخطط للمقريزي
١٧ — طبقات الشافعية للسبكي .

إعلان

تعلن إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة الجمهور أنه يجب في حالة انقطاع التيار الكهربائي عن أي حي من الأحياء أو العمارات في أي وقت من الليل أو النهار المبادرة بالاتصال بالإدارة العامة تليفونياً في نمرة ٤٦٣٣٥ حتى تقوم فرق الإصلاح فوراً لإعادة التيار .

والإدارة تلفت نظر الجمهور أنه يجب الاتصال بها لأخذ تصريح بأقامة الزينات الكهربائية في المناسبات المختلفة قبل إقامتها بوقت كاف حتى تستعد لها ولا يتسبب عنها قطع التيار عن الحي بأكمله وتلف الأجهزة الموصلة للتيار .

٢٠٥٨